

ساراكينوس

SARACENUS

للأستاذ محمد عبد الله العمودي



جاء في العدد ٣٢٤ من هذه الرسالة المالية ، كلمة بعنوان
« يا رسول الله » ، (لأستاذ جليل) ينم عليه قلبه !
استهلها بآية من آياته ، وبينت من بيناته ، وتلك قوله :
« إن الدهر قد جار على قوم عرب ١١ »

ثم تقل من (التنبيه والإشراف) للمسمودي هذه التنبذة :
« كانت ملوك الروم تكتب على كتبها من فلان ملك
النصرانية ، فغير ذلك نفقور ، وكتب (ملك الروم) وقال هذا
كذب ، ليس (أنا) ملك النصرانية ، أنا ملك الروم ، والملوك
لا تكذب ، وأنكر على الروم تسميتهم العرب (ساراقينوس)
تفسير ذلك : عبيد سارة ، طمنا منهم على هاجر وابنها لإسماعيل ،
وقال : تسميتهم عبيد سارة كذب . والروم إلى هذا الوقت (يعني
سنة ٣٤٥) تسمى العرب (ساراقينوس ...) اهـ

وأستاذنا الجليل ، وهو « سباق غايات ، وصاحب بينات »
كان حقاً عليه أن يقف لحظة أمام هذه (الكلمة) فيما لجها
معالجة يردّها إلى أصلها ، أرى قولاً في فصلها : إذ هذا هجراد
وديدنه في كل ما يرقه قلبه البارح في شتى « بحاثاته » ... !
ولكنه لم يفعل بل تركها تجري في عبارة المسمودي غامضة الوضع ،
عسيرة الفهم ، ملحقة بذلك التفسير الذي يغلب على الظن
أن المسمودي فسره تفسيراً خيالياً بقوله : « عبيد سارة » أخذاً
من الهجاء الأول « سارا » من كلمة : « ساراقينوس » ،
والدليل على بطلان هذا الكلام عن المسمودي ، وإن كنا لا نستبعد
أن لوجود « سارا » أو « ساره » في بنية هذه (الكلمة) من
أمر ، قوله : « وقال « أي تفقور » تسميتهم عبيد ساره كذب »
لأن ملكاً من ملوك هذه المفسرة لا يمكن بحال من الأحوال
أن يجمل من نفسه مدافماً عن العرب ، أو يعني بمثل هذا التعليل
وغاية ما في الأمر أن لخيال المسمودي أثر في هذا ، فمن وجود « سارة »
في هذه الكلمة يتبادر إلى ذهن « المؤرخ » إلى طريقة الخرافية

فيها ، فإذا غاب عنه من الوجع عقله تركها في مكانها ، فلما دخلا
عليه ألفياه يقرأ في صحيفة في يده . جلسا ساعة يؤنسانه فما شعرا
إلا ضجة تدنو حتى حسابها قد استقرت في الفندق ، فنظرا من
الشباك فإذا الرحبة والطرق التي تؤدي إليها ما فيها موطئ قدم
خلا من إنسان . فاضطرب الرجل وزل يسأل أن ماذا جرى ؟
فما أحس إلا الناس يقولون : لقد أتى ... هو في الطريق ...
فأيقن أنه الخليفة ، ولكنه رأى موكب الخليفة غير مرة فما رأى
مثل اليوم ... ودنا من شيخ واقف في أطراف الناس فسأله
من القادم ، وأين يذهب ؟

فقال : إنه أبو عبد الله الذي لا يعنى إلى الخليفة ، قادم ليمود
مريضاً في هذا الفندق . فصاح الفندق :

— أبو عبد الله قادم إلى فندق ، أبو عبد الله ؟ وطلق بصيح
ويثب لا يدرى ما ذا يصنع وما ذا يقول ، وما يحفله أحد لأن
الناس يتشوفون إلى الطريق ينظرون ، وقد احتشدوا فيها فما بقي
براز في دكانه ، ولا تاجر في سوقه ، ولا طالب علم في حلقتة ،
ولهم دوى وجلبة ...

وحما الفندق على نفسه ، فإذا هذا البحر ينشق بقدرة الله ،
وإذا الخلق يسكتون حتى كأن على رؤوسهم الطير ، ويبدو الإمام
ومن حوله طلبة العلم قد احتشدوا من جهات بغداد كلها . بغداد
العظيمة التي يسكنها مليونان وبأيديهم قراطيسهم وأقلامهم
يكتبون كل كلمة يقولها فانتحى الإمام إلى الترفة ، فوقف على
المريض فقال له :

— يا أبا عبد الرحمن أأبشر بشواب الله ، أعلاك الله إلى العافية ،
ومسح عنك يمينه الشافية
فتناقل القوم ما قال فكتبوه

ومرّت أعوام بعد ذلك وأعوام ، والناس يذكرون هذا
اليوم المشهود . أما الفندق فتدا منذ تلك الزيارة محط رجال العلماء
والكبراء ، ودرت على صاحبه أخلاف الرزق ، وأما بقي فقد شفاه
الله وعاد إلى الأندلس فلأما علماً ...

عن الطنطاوي

وإنما كانت خاصة بقبيل معين يسكن على شواطئ خليج العقبة في الجزء الجنوبي لجزيرة سيناء يعرفه الإغريق بـ «سارا كيني»^(١) Sarakini

وأقدم ذكر جاء لهذه الكلمة في كتاب المؤرخ الإغريقي ديوسكوريدس Dioscurids of Anazarabos في منتصف القرن الأول من ميلاد المسيح عند ما وصف صمغ «الفيل» فقال: إنه ينبت من «شجرة ساركينية».

وذكر المؤرخ الروماني بلينيوس الأكبر في كتابه «التاريخ الطبيعي»، وقد كان معاصراً للإغريق السابق الذكر، هؤلاء «السراكين»، فقال: «إنهم من جملة القبائل العربية الثاوية في صميم الصحراء، والتي تتأخم بلاد الأنباط».

وجاء على أثر هؤلاء المؤرخ بطليموس، في منتصف القرن الثاني للميلاد، فذكر بلاد «السراكين» Sarakene، فقال: «إنها تقع في بلاد العرب الحجزية Arabia Petrea وعين مكانها بقوله إنها تقع في غرب الجبال السوداء التي تمتد - بناء على قوله - من خليج فاران^(٢) إلى أرض اليهودية ...»

ولم يكف المؤلف بكلامه هذا، بل عاد وتغنّى قوله، فقال في موضع آخر من مؤلفه: إن «السراكين» شعب يقيم في داخلية بلاد العرب السعيدة Arabia Feliza يقصد بذلك بلاد اليمن. وزاد على ذلك فقال: إن «السكينيتس» Skenites وقوم حاد Oaditai يسكنون الهضاب المرتفعة، ويقرب منهم نحو الشمال والجنوب يوجد «السراكينوس» والتموديون^(٣)!

وهذه الفقرة الأخيرة من بطليموس بيدة عن أفهامنا كل البعد إذ لا يصدق مطلقاً أن توجد قرابة في السكن بين «السراكينوس» و«السادين» مثلاً؛ فأولئك - كما علمنا - مساكنهم حوالى جزيرة سيناء، وهؤلاء مثاوبهم في جبال حضرموت والمسافة بين البلدين طويلة لا تقاس!

ولعل بطليموس قاس هذا قياس استيطان لا قياس مساحة بالنسبة لجهله بأبعاد الجزيرة. وأما قوله إن «السراكينوس» على مقربة من «قوم عاد» كما ذكرنا، في بلاد العرب السعيدة،

الدهاية التي «تخط» من قدر الاسماعيليين أبناء هاجر بالنسبة «لسارة» الزوجة الشرعية لإبراهيم الخليل ... وهذا ما وقع فيه للمسمودى، فلا يُسلم له بهذا، إلا إذا جاء نص من اللاتينية أو الإغريقية يقول إن «كينوس» بمعنى «عبد» حينئذ يمكننا أن نركن البنادق مسلّمين!

وسيرى الأستاذ الجليل، من الأقوال الآتية في أصل هذه الكلمة وما قاله المؤرخون، قداى ومحدثون، ما يجعله يقلل من أهمية رواية المسمودى الذى إذا صح أنه لم يتدعها من خياله، فقد أمكن حينئذ أنه استقاها عن طريق ... (امرائيليات!) والنكتة في هذا معلومة!

هذه الكلمة قد سجلها التاريخ في مطاويه منذ عهد عريق جداً، فالعرب لا تعرفها مطلقاً، إذ لم تشهر في تاريخهم، وما وردت في نظمهم ولا نثرهم. فإذا كان المسمودى هو المؤرخ الوحيد الذى ذكرها، فلا شك أنها هبطت عليه عرضاً، واقتنصها اقتناصاً من أحاديث الروم. ومعنى هذا أنها غير مشهورة بين العرب، ولا جارية على ألسنتهم فهم يجهلون كل الجمل جهلهم بأصلها!

وهي سارية في كل اللغات الأوربية بهذا المفهوم اللهم إلا في الهجاء الثانى منها فإنه يختلف اختلافاً بسيطاً بحسب اختلاف اللغى والهجات ...

أما التوصل إلى حقيقتها والتعرف على كنهه تحدرها في مجرى التاريخ فهذا لا يكون إلا بالوقوف على ما كتبه مؤرخو أمتى البحر المتوسط: الإغريق والرومان؛ فلهاتين الأمتين صلات وثيقة وتجارة جارية. أجل، عند هاتين الأمتين نشأت كلمة «سارا كينوس» ووردت في تاريخهما معززة بهجاءاتهما المتوالية على حدود الممالك الإغريقية والرومية في مصر وفلسطين وما وراء بلاد الأنباط. وكانت قوافل السبائين من أقصى الجنوب تفيض موقرة بالآمال، ممطرة الأعطاف بالهار والأطياب فتتسلها أيدي هؤلاء «السراكينوس» لتتوزع في قصور أوروبا ومابدها عن طريق الأفاقة والرومان ...

وإذا كانت هذه الكلمة أصبحت اليوم علماً خاصاً يطلق على العرب، فإن مفهومها قديماً كان على عكس ذلك؛ فقد كانت تدور في دائرة ضيقة من التعريف، لا تطلق على الشعب العربي كله

(١) Enciclopedia Italiana, Art. Saraceno

(٢) خليج فاران، هو خليج العقبة. وأرض فاران هي الصحراء خلف العقبة

(٣) Encyclopedia of Islam, Art. Saracens

فأرسلت رسلها إلى الكنائس الفريسية تنبئها بأمر المسلمين ،
وأن شيئاً جديداً قد صار يهدد الكنائس ! !
ولما ودع هرقلُ سورية وداعه الأخير المشهور ، واكتسحت
جحافل ابن العاص قلل الرومان في مصر ، كان أمر
« السرازين » قد ملأ النفوس رعباً وممالك الفرنجة اضطراباً ،
حتى أصبحت هذه الكلمة من مرادفات الموت والموت ؛ ومن
ذلك الوقت عُرف المسلمون بـ « السرازين » وإن كانوا هم العرب
في حقيقة الأمر والواقع !

وبقى البيزنطيون على وجه أخص يطلقون هذا الاسم
على المسلمين إلى أواخر القرون الوسطى حتى سقوط الخلافة
في بغداد . يؤكد لنا هذا خبر ابن بطوطة عند ما دخل القسطنطينية
فخياه امبراطورها باسم « سراكينو » Sarakino أي مسلم
ولما استقر العرب في أسبانيا كانت كل الأمم الأوربية قد
سمت بـ « السرازين » وراحت هذه اللفظة متغلغلة في آداب هذه
الأمم ؛ فاستعملها الفرنسيون في شعرهم الحماسي Epique باسم
« السرازين » Sarrazin أي القدرة السراء (كما يقولون !)
يعنون بذلك عرب أسبانيا نظراً لكونهم الصحراوي الأسمر !

ثم أخذت طريقها بعد ذلك إلى إيطاليا ، فتسللت إلى شعر
الفروسية الإيطالية باسم « ساراشيني » Saracini ، وفي أثناء
الحروب الصليبية كان المسيحيون يطلقونها أيضاً على المسلمين
أجمين ، وقد ذكرها الشاعر الإيطالي (دانتي) في (جحيمه)
بقوله ^(١) : e non Con Saracin nè Con Judei

ومعلوم من التاريخ أن غزوات العرب قد وصلت إلى معابر
جبال الألب ومانافذ سويسرة بعد أن استولوا على جزء عظيم من
جنوب وشمال إيطاليا وفي استطاعتنا أن نقول إنه لا يوجد اليوم
جزء من أجزاء العالم يردد أهله ذكر (السرازين) في حكايات
أقرب إلى أن تكون من عمل خيالات القصصيين المولعين بأخبار
الحماة ، كبلاد سويسرة . فعلى جبال هذه البلاد بنى (السرازين)
آطامهم وقلاعهم وحصونهم ، وما زالت حتى هذه الساعة محتفظة
باسمهم ، وفي مهاوى هذه الشعب البعيدة عن الدالم تقوم كنائس
وأدبرة ما فتى رهبانها يذكرون أخبار (السرازين) في عبارات
مزيجية بالخرافة والتاريخ !

بعد أن أقرهم في بلاد العرب الحجرية ، فلا يبعد أنهم كانوا يفهمون
كل ما هو خلف بلاد الأنباط من بلاد ، هو من بلاد العرب
السعيدة ، إذ هم يتصورون أجوامها وراء هذه الحدود ،
والسراكينوس كانوا عند ما يهاجمون هذه الممالك سرعان ما يختفون
في أجواف هذه الصحراء صوب اليمن ...

مع كل ما سبق ، إذا جئنا نفلس هذه الكلمة في الأسفار
اليهودية والسريانية لم نثر فيها على ما يشئ غلة الباحث العاصي .
نعم ! إن الكنائس السريانية قد برزت في هذا المجال فحفظت لنا
أسفاراً قديمة جداً تتعلق بأخبار الساميين — وخاصة ما يتعلق
بهم من ناحية العقيدة ، كما يتضح لنا هذا في « كتاب الحيريين »
الذي نقله من نص سرياني الأستاذ (إكسل مورج) المدرس
بجامعة لند Lund من أعمال السويد . أما « السراكينوس »
فلم يرو لهم ذكر يذكر في هذه الأسفار السريانية ، ما خلا رسالة
وضمها برداسانيس السرياني في بداية القرن الثالث للميلاد بعنوان
Ketaba de namose d'ataivata ذكر فيها الطائفتين Tayoye
و « السراكينوس » Sarakoye بقوله : « إنهما قبيلتان تملكان
أهم القبائل العربية الرحالة » ^(٢)

واستمر الحال على هذا في تلك الأعصار الماضية والسراكينوس
لا يعرفون إلا في تلك الطوائف الصغيرة التي تظهر أحياناً منيرة
من وراء الحدود التبطية ، حتى نهض العرب نهضتهم المشهورة ،
حاملين الرسالة الإنسانية ، فبدت طلائع خيلهم من وراء التخوم
الفلسطينية تتواكب شمالاً ويساراً على حفاف البحر المتوسط ؛
فاهتزت لها أرجاء المملكة الرومانية ، وارتعدت لها فرائص
القيصرية ، وسرى أمر « السراكينوس » بين أمم البحر المتوسط
مسير الشمس ، فأصبحت هذه الكلمة من هذا الحدث التاريخي
العظيم قد أخذت لها معنى واسفاً عن ذي قبل ، فكانت سمة
الشعب العربي كله

من هذا نرى أن الكلمة قد تجمعت شكلاً آخر أو مشت
متطورة إلى دور ثان ، وسنراها كذلك قد دخلت في طور
ثالث ؛ وذلك أن العرب عند ما اشتدت هجماتهم على ممالك الروم
في مصر والشام ، وذاع من أمرهم أنهم يحملون ديناً جديداً
إلى العالم ، أفض هذا مضجع الكنيسة الشرقية في عاصمة بزنطية .

(١) Dante, Inf. Canto, XXVII, 87 ومعنى الشرطة : وليس مع

المسلمين ولا مع اليهود .. (في كلامه له ما قبله)

« شروقا » فليس بمجيب إذن أن يمد التاريخ نفسه في القرن العشرين !

ولكن مع كل هذا التمليل ، ففي النفس شيء من « سارة » في « سارا ... كينوس » وأن هذا التركيب لا بد وأن يحمل توجيهاً آخر في تحليل هذه اللفظة ، وخاصة إذا أخذنا بأقوال مؤرخي الكنيسة في القرن الرابع أن « السرازين » انضموا إلى الاسماعيليين الذين كانوا يقيمون في صحراء قádiz في مقاطعة فاران حيث بهض جبل « حوريب » في شرق البحر الأحمر . وفي النفس شيء - أيضاً - من هذا إذا علمنا أن « الهاجرين » أبناء هاجر ، قد اشتهروا في الأدب اللاتيني في القرون الوسطى كرادف « للسرازين » فهل لعلماء اللغات السامية ، والبرزين في الإغريقية واللاتينية ، كشيخنا العلامة الكرمل ، أن يقولوا كلمتهم في هذا الشأن ، فيعيدوا الحق إلى نصابه ، والسيف إلى قرابه ؟

أما بعد هذا كله فإني أختتم هذا البحث بمخرقة قالها أحد المؤرخين الأوربيين ، وذلك أن « السرا كينوس » القذائي لا تزال سلاتهم موجودة لليوم ممثلة في قبيلة « السواركة » القبييلة البدوية الصغيرة التي تعيش إلى هذا اليوم على شواطئ البحر بين المريش وغزرة

وحسبنا أن نقول إزاء هذا التحقيق أن هذه بلية من بلايا البحث توقعها المجانسة في اللفظ ؛ وكم خدعت المجانسة مستشرقين في الغرب وأئمة في الإسلام . فالسواركة هؤلاء وجدوا في عصر متأخر ، يرجعون في نسبهم إلى سيدنا عكاشة الصحابي المشهور^(١) وفوق كل ذي علم عليم

محمد هبة الله العمودي

(القاهرة)

(١) راجع أخبارهم في كتابي « تاريخ سبأ القديم » لنوم شقير . و « تاريخ بئر السبع وقبائلها » لعارف العارف .

هذه قصة « السرا كينوس » تتبعناها من منبعها إلى موقعها بحسب ما توفر لنا من البحث والزمن ، ويرى القارئ من هذا التفصيل السابق أن هذه الكلمة قد أصبح أمرها معروفاً من حين خروج العرب من جزيرتهم ، وأنها لا تطلق إلا عليهم ، ولكن الشكل المحير هو :

من هم هؤلاء « السرا كينوس » قديماً ؟

ومن أين اشتق هذا الاسم ؟

سؤالان لم يجزم بحقيقتهما حتى الآن ؛ فقد ذهب المؤرخون في مأخذ هذا اللفظ مذاهب شتى ، كلها من قبيل الظنون والرجوم ، فظانها نامضة ، وأثرها مطموس ، وللمؤرخين أقوال في هذه « اللفظة » نجملها فيما يلي :

١ - في المصور القديمة كانت تطلق على قبيل بعينه كما بينا فيأمر ، ولكن في المصور المتأخرة ذهب المؤرخون فيها مذاهب شتى ، فيرى بعضهم أنها :

٢ - تصحيف « شرقين » المربية ، ويدللون على رأيهم هذا أن حرف « الشين » العربي لا يوجد في الإغريقية ، ولا الرومانية^(١)

٣ - « سراقين » أي « اللصوص » ، ويقصد بهم سكان الصحراء !

٤ - « سارا كين » أصلها « صحراء ساكن » أي سكان الصحراء !

وبعد فهذه أقوال المؤرخين في هذه اللفظة المحيرة ، ففيها ضعف ، وفيها قوة ، وكلها - في رأينا - لا تنفي من الحق شيئاً على أنه إذا صح لنا الاختيار من هذه الأقوال ، فأقوى الآراء منها القول بأنها تصحيف « شرقين » فالكلمة إذن عربية أصيلة ، أطلقتها الأنباط ، وهم عرب على القبائل التي تناوحتهم من جهة الشرق . فسمع منهم الإغريق والرومان هذا اللفظ فأدخلوه إلى لغتهم بتلك التسمية ، وقد كانت لهم مستعمرات بهذه الأرجاء كما هو معروف . وكلمة « الشرق » و « الشرقيين » لها أصل في لغتنا اليوم ؛ فالعربون يطلقون على كل من يفد من جهة الشرق « شرقيين » وأهل الحجاز يسمون أهل نجد

